obeikandl.com

obeikandl.com

٤٩١ - دلالة: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾[١] الآيات [١ - ١١] تدل على أن العبد هو الفاعل المختار؛ لأن الخشوع فى الصلاة لا يكون إلا بفعل من قبله على وجه مخصوص. والإعراض من اللغو لا يصح وصفه به إلا مع قدرته عليه. ولا يجوز أن يكون فاعلا للزكاة إلا أن يحدث الفعل الذى يقدر عليه، ولا يصح أن يحفظ فرجه على شىء مخصوص إلا وهو متخير لفعله يختار بعضه على بعض. ولا يجوز أن يوصف بأنه للأمانة راع إلا بأن يختار فعلا على فعل، وكذلك الفعل فى المحافظة على الصلاة.

٤٩٢ - وقوله تعالى من بعد: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٢] يدل على أن غير الله يصح منه الفعل والخلق؛ ألا ترى إلى فساد القول بأنه أحسن الآلهة؛ لما لم يصح إثبات إله سواء، وصحة القول بأنه ارحم الراحمين لما صح إثبات راحم سواء.

فإن قال: فيجب أن يقال فى غيره تعالى إنه خالق بالإطلاق!

قيل له: لا يجب؛ لأن التعارف أوجب أن لا يطلق هذا الاسم إلا فى الله تعالى، كما اقتضى أن لا يطلق اسم الرب إلا فيه، ثم لم يمتنع أن يكون العبد ربا لدابته وداره، فإن صح [هذا] المعنى فيه، فكذلك يجب أن يصح فيه معنى الخلق والفعل، وإن منع فيه الإطلاق للإبهام.

وما قدمناه من الآى يدل على أن المؤمن لا يتكامل كونه مؤمنا إلا بسائر ما ذكره من الصلاة والزكاة وغيرهما، وأن الإيمان عبارة عن الواجبات والطاعات، ولا يختص القلب فقط.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

ويدل أيضا على أن المؤمن لا يفلح ولا يفوز بالظفر والثواب إلا بأن يختص بهذه الصفات. وفى ذلك دلالة على أن مرتكب الكبائر لا يستحق الجنة.

٤٩٣ - مسألة: قالوا ثم ذكر بعده ما يدل على أنه يخلى العبد والجهل، وأنه يفعل الأفعال لا لصلاح الخلق، فقال: ﴿**فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾(١).

والجواب عن ذلك: أن ظاهر قوله: ﴿**فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ**﴾ يقتضى الأمر بتخليتهم وما يختارون من الجهل والكفر، وهذا هو الواجب على الرسول علية السلام، لأنه لا يجوز أن يمنعهم عن ذلك قسرا، فنبه تعالى بهذا الكلام على التقريع والتوبيخ، للعقاب المنتظر الذى دل عليه بقوله: ﴿**حَتَّىٰ حِينٍ**﴾ فزجر بذلك الكافر عن كفره! وإنما سمى ذلك غمرة لاستيلائه على القلب، ولأنه غمر سائر أفعاله وغلبه، فصار العقاب أولى به.

وبين بقوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ**﴾ أن الذى عجله لهم من اللذة لا يرفع عنهم من العقاب شيئا، لئلا يظن ظان فيقول: لو كانوا مستوجبين للعقاب، بما أقدموا عليه، لم يكن تعالى ليديم عليهم النعم بالأموال والأولاد وهذا بين.

٤٩٤ - وأما قوله تعالى، من بعد: ﴿**وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾(٢) وقد ثبت أن الوسع دون الطاقة، من أقوى ما يدل على أنه تعالى لا يكلف العبد فعلا فى وقت دون وقت إلا وهو قادر عليه، وذلك يبطل قولهم إنه تعالى كلف

(١) سورة المؤمنون - الآيات ٥٤ - ٥٦.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٦٢.

obeikandi.com

الكافر الإيمان، ولم يقدر عليه، ويوجب أن القدرة متقدمة للأفعال، ليصح القول بأن المأمور بالإيمان قادر عليه من قبل.

٤٩٥ - وقوله تعالى: ﴿**وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ**﴾ يدل على نفى القبائح عن الله، لأن هذا الوصف فى الكتاب لا يصح إلا مع هذا القول.

٤٩٦ - وقوله: ﴿**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ يوجب أنهم متى عوقبوا فمن استحقاق، وذلك يبطل القول بأنه تعالى يجوز أن يبتدئ بذلك، أو يخلق الكفر ثم يعاقب عليه!

٤٩٧ - **مسألة**: قالو: ثم ذكر تعالى فيها ما يدل على أن الإماتة فى جميع الموتى من فعله، وفيهم المقتول الذى - بزعمكم - مات بفعل القاتل، فقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾(١).

والجواب عن ذلك: أن الموت لا يكون إلا من فعله تعالى، كالحياة، والقتل غير الموت، فلا يجب أن يتنافى فى إضافة القتل إلى القاتل، مع القول بأن الموت لا يكون إلا من فعله تعالى؛ لأنهما غير أن لا يمتنع اختلاف حكميهما، ولذلك أضاف الموت إلى نفسه فعلا.

وأضاف القتل إلى القاتل وتوعده عليه، فلا يصح تعلق القوم بما ذكره، ويجب أن ينظر فى المقتول: فإن حصل فيه مع القتل الموت من فعله تعالى فيجب إضافة الموت إلى الله تعالى، وإن لم يحصل ذلك لم يحصل ميتا أصلا، فلا معنى لهذه الإضافة، ومتى قيل إنه ميت، فليس المستفاد بذلك [إلا] ثبوت الموت فيه.

واختلف شيوخنا رحمهم الله فى ذلك، فمنهم من ينبت فى المقتول

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٨٠.

obeikandi.com

والمذبوح الموت لا محالة، ومـنهم من يجوزه، ومنهم من يقطع بأن الموت فى المذكى ولا يحتاج إلى ذكر الصحيح من ذلك فى بيان فساد تعلقهم بالظاهر.

٤٩٨ - وأما قوله تعالى: ﴿**قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا**﴾[1] (الآيات ٨٤ - ٩٠) فإنه من أقوى ما يدل على الحجاج والنظر وفساد التقليد.

ومن هذا الوجه، يدل على بطلان قـول المجبرة، لأن على مـذهبهم لا فائدة فى النظر والحـجاج؛ لأنه إن خلق تعالى فى العـبد المعرفـة بربه حصل عارفا، تقدم منه الاستدلال أم لا، وإن فعل فـيه خلافه فكمثل، فلا فائدة - على مذهبهم - فى مكالمتنا لهم، ولا فى سماع محاجتهم بزعمهم منهم.

وذلك أنا نقول لهم: إن كان تعـالى يريد منكم ربكم إلا ما أنتم عليه، ويخلقه فيكم حالا بعد حال. فما الفائدة فى مناظرتنا لكم؟!

ومن وجـه آخر، وذلك أن من قـولهم: إن القدرة توجب الفـعل؛ من حيث لا يصح وجودها خـالية منه، فالنظر منا ومنهم واجب وقـوعه بأمر من قبل الله تعـالى، فما الفائدة فـيه؟ لأنه لو شاء أن يخـتار فينا خلافـه لفعل، وهذا يوجب، من وجه آخـر الفساد؛ وذلك أنه يجب أن لا يستـدل بالحجاج على علم العالم؛ لأنه تعالى هو الخالق فيه القدرة الموجبة.

فمن أين أن المناظر والمجادل عالم بكيـفيته حتى أمكنه إيراده؟ ويجب - على قول القوم - أن لا يكون لتـأليف الكتب معنى، وأن يكون أعظم الناس عبـثا ولغوا من صنف منهم الكـتب؛ لأنهم إذا دعوا بذلك الموافق إليه، فـقد خلق الله فيه الوفـاق وإن دعوا به المخالف فقد خلق الله فيـه الخلاف! ومتى تغير حـالهما إلى غير مذهبـهما فلأن الله تعالى يخلق ذلك، فـما الفائدة فى تأليفهم الكتب وتكلفهم الكثير من ذلك؟!

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٨٤.

obeikandi.com

وقد قال شيوخنا، رحمهم الله، للقائلين بالإلهام: إذا كان الله تعالى هو الملهم للمعارف، فما الفائدة فى تأليفكم الكتب؟ وهل هذا إلا بعث للقديم - تعالى - على خالق المعارف! وإن لم يصح ذلك فهو لغو!

وهذا للمجبرة ألزم؛ لأنهم يقولون فى جميع الأفعال بمثل قولهم فى المعارف فقط، ولو أن الواحد منا سأل وألحف فى مسألته ووجد المسئول ساكتا للامه، ونسى عند ذلك مذهبه من أن العبد مصرف فيما يأتيه من سكوت ونطق!

وبعد، فإنه يجب على قولهم أن لا يحصل العبد منعما بشىء من نعم الدنيا، كما لا يحصل منعما بالدعاء إلى الله تعالى بالقول والكتب، وذلك أنه إن أنعم بالإطعام فالله تعالى هو الذى خلق فيه حركات يده التى بها نقل الطعام وأصلحه، بل عندهم أن سائر ما فى الطعام مما معه يعد نعمة من خلقه تعالى متفردا.

وكذلك القول فى العطايا أجمع، فقد صح أن قولهم كما يوجب أن لا نعمة لله تعالى على أحد، من الوجوه التى بيناها، فكذلك يوجب أن لا نعمة لأحد على أحد، وأن لا يصح الدعاء إلى المنافع، ولا الجدال فى الدين.

٤٩٩ - وأما قوله تعالى: ﴿**رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[1] فقد بينا أنه لا بدل على أنه تعالى يجعل الظالم ظالما، وذكرنا الوجه بالدعاء فلا وجه لإعادة. هذا وظاهر هذا القول يقتضى أنه لا يجعله فيهم، وليس فيه أنه لا يجعله ظالما، وإنما يعلم ذلك لا بالظاهر.

(١) سورة المؤمنون: الآية ٩٤.

obeikandl.com

٥٠٠ - وقوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾[١] يدل على أن العبد مختار فاعل، و إلا كان لا يصح منه ذلك!

٥٠١ - وقوله من بعد: ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٢] يدل على قولنا فى العدل، لأنه تعالى إن كان يفعل ما يشاء، على ما يقوله القوم، فما الفائدة فى الموازين التى يظهر بها حال المحسن من المسىء بين الخلائق وعلى رءوس الأشهاد؟ وإنما يصح ذلك على قولنا؛ لأن العبد إذا علم ذلك فى حال التكليف يكون أقرب إلى أن يفعل الطاعة ويتمسك بها؛ هربا من الفضيحة يوم القيامة بما يظهر من ثقل الميزان وخفته.

٥٠٢ - وقوله تعالى ﴿**أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾[٣]، على التقريع والتوبيخ لهم فى تلك الحال، من أقوى ما يدل على أن التكذيب كان من قبلهم، وعلى أنه قد كان أزاح العلة وأوجد السبيل إلى الطاعة.

٥٠٣ - وقوله تعالى، من بعد: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾[٤] يدل على العدل، وعلى تنزيهه عن القبيح؛ لأنه مع تجويز ذلك علية يلزم القول بأنه عابث بسائر ما خلق الله، تعالى عن ذلك.

ويدل على بطلان قول من ينكر المعاد والرجعة.

***

(١) سورة المؤمنون - الآيتان ٩٩، ١٠٠.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠٢.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٠٥.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥٠٤ - دلالة: وقوله تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ**﴾[١] يدل على ما نقوله فى الوعيد، من جهات: أحدهما: أن الزنا لو لم يكن كبيرة مزيله لثواب فاعلها لم يكن ما يلزمه من الحد عقوبة له، وذلك يدل على أنه من أهل النار، لأنه لا يجوز أن يستحق العقوبة فى الدنيا وما معه من الإيمان قد أزال عقاب الآخرة؛ لأن كل ما أزال العقاب يجب أن يزيل جميعه، كالتوبة، وكان يجب أن لا يحد إلا امتحانا! ولو كان كذلك لم يوصف حده بأنه عذاب، وكان يجب، لو لم يكن كذلك على جهة العقوبة، أن يجوز أن يرأف به، فلما منع ذلك وأوجب أن يستخف به، دل ذلك على بطلان هذا القول!

٥٠٥ - وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٢] يدل على أن رمى المحصنات من الكبائر، على قدمناه.

ويدل أيضا على أن فاعله فاسق إن لم يتب، وبين أن المؤمن التائب لا يكون فاسقا و إلا كان يجب، وإن تاب، أن يكون بهذه الصفة، وكان لا يصح بهذا الاستثناء معنى!

٥٠٦ - وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٣] يدل على أن المغفرة للتائب تختصه متى صلح واستقامت طريقته، ولو كان مرتكب الكبائر يجوز أن يغفر له لكانت التوبة فى المغفرة كافية.

---

(١) سورة النور: الآية ٢.

(٢) سورة النور: الآية ٤.

(٣) سورة النور: الآية ٥.

obeikandi.com

ويدل ذلك على بطلان قولهم فى الـشفاعة؛ لأنه لو غـفر له بشفاعـتة عليه السلام لم يتعلق غفرانه بالتوبة والصلاح.

٥٠٧ - مسألة: قالوا: ثم ذكر بعده ما يدل على أن الـقبيح قد يكون حسنا وخيرا من الله تعالى، فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾(١).

والجواب عـن ذلك: أن ظاهره يوجب أن الإفك والكذب هو خيـر لمن يفعل به وليس بشر، وهذا مما لا يطلقه أحد من الأمة، فلا بد للجميع من أن يتأولوه، وإذا تنازعوا التأويل فقد زال الظاهر.

ولولا أن الأمر كذلك لوجب أن يكون من جـاء بالإفك يحمد على ما فعل؛ لأنه قـد فعل بمن رماه الخـير، وهذا يوجب كونهم مـحسنين إلى النبى ﷺ، وهذا كـفر من قـائله! ولو كان كـذلك لم يحـتج إلى إنزال الآيات فى تكذيبهم!

فإذا صح ذلك فيجب أن يكون المراد بالآية أن ما فعلوه، بما حصل عنده الصـبـر على مـــا ورد على القلب من الغم، وعظـم الثـواب فى ذلك، أو العوض، كان ذلك خـيرا كثيرا. ونبه تعـالى بذلك على أنه لما بين من حالهم الكذب لم يكن لقولهم تأثير ألبـتة، فصار وجوده كعدمـه، وزال الشر فصار الخير مشتملا حاصلا، وهذا بين.

٥٠٨ - وأما قوله تعالى: ﴿**يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾(٢) فإنه يدل على أنه أراد منهم ترك العودة إلى ما افترقوه من الذنب.

---

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) سورة النور: الآية ١٧.

obeikandl.com

وقوله تعالى: ﴿إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يوجب أنهم لا يصيرون كذلك إلا بترك المعاودة. وهذا يوجب أن من جملة الإيمان أفعال الجوارح.

٥٠٩ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾[١] قد بينا أنه يدل على أمور: منها: أن الإنسان يؤاخذ بأفعال قلبه، لأن المحبة هى من أفعال القلوب.

ومنها: أن محبة القبيح لا تكون إلا قبيحة، و إلا لم يحسن ذمهم من حيث أحبوا الفاحشة فقط. وإذا ثبت ذلك فيها وكانت هى الإرادة، فيجب أن تكون إرادة القبيح قبيحة.

ومنها: أنه قد يحصل فى الإرادات الكبائر؛ لأنه تعالى بين فى هذه المحبة أنه يتعلق الوعيد بها.

ومنها: أن من أحب الفاحشة، فإيمانه لا يزيل عذاب الآخرة عنه؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[٢].

ومنها: أنه يدل على أن ما يستحقه من العذاب قد يقدم إلى الدنيا، وأن الحدود فيها عقوبات، وليس كفارات، على ما يقوله بعضهم!

ومنها: أنه يدل على أنه لا فرق بين أن يريد الإنسان المعصية من نفسه، أو من غيره، فى تعلق الوعيد؛ لأنه تعالى سوى بين الأمرين.

ومنها: أن انتشار الفاحشة فى المؤمنين له من المزية ما ليس لغيرهم، فلذلك جل وعز خصهم بالذكر، ولا يكون الأمر كذلك إلا والفاحشة إذا ظهرت من المؤمن لا يكون الحال فيها كالحال إذا كتمها، وهذا دلالة على أن

---

(١) سورة النور: الآية ١٩.

(٢) سورة النور: الآية ١٩.

obeikandl.com

المستحب أن يكتمها وأن لا يفضح نفسه، لأنه إذا رغب غيره فى ذلك فكذلك حاله.

ومنها: أن المحب للمنكر ولظهوره فـى حكم المقدم عليه، فى أنه بمنزلة إقدامه على المنكر، وأنه يجوز أن يؤاخذ كمؤاخذة من أقدم على ذلك.

ولا تدل هذه الآية على أن المقدم على الفـاحشة مؤمن، على مـا تقوله المرجئة؛ لأنه تعالى إنما ذكر محبـة ظهور الفاحشة فى اللذين آمنوا، ولم يبين أنها إذا وقـعت كيف حالهـم، ولا يمتنع أن يكون المؤمن مؤمنـا ثم يظهر فى المستأنف ما يخرج به من هـذه السمة، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ يفيد الاستقبال لا محالة، فكيف يدل على ما قالوه؟

وإذا ثبت من أن هذا حاله له عـذاب فى الآخرة لا محـالة؛ بطل القول بالشفاعة، على ما يقوله من يذهب إلى أنه بشفاعته لا يدخلون النار.

٥١٠ - وقوله تعالى من بعد: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾(١) يدل أيضا على قولنا فى الوعـيد، لأنه تعالى بين كونهم ملعـونين [و] أنهم من أهل النار والعقـاب، وبين بقوله: «فى الآخـرة» أنهم يبعـدون من الثواب، وينزل بهم العقـاب هناك، وبين مع ذلك أن لهم عذابا أليما، سوى اللمن الذى هو بالقول.

٥١١ - **مسألة**: قالوا ثم ذكر تعالى بعده ما يدل على أنه لا يمتنع أن يكون فاعلا للكلام فينا ونحن مـتكلمون به، فقال: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم**﴾(٢).

---

(١) سورة النور: الآية ٢٣.

(٢) سورة النور: الآية ٢٤.

فبين أن الشهادة من فعل غير الألسنة، وإن كانت هى الشهادة.

والجواب عن ذلك: أن ظاهر الكلام إنما يدل على أن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد، وليس فيه أن ذلك الكلام من فعلها أو من فعل الله فيها، فلا ظاهر لهم!

وقد جوز شيخنا أبو على، رحمه الله، فى ذلك أن تكون الشهادة من فعلها، بأن جعلها الله أحياء ناطقة، وجوز أن يفعل تعالى ذلك فيها وتوصف بأنها تشهد، على جهة المجاز، وبين أن الغرض بذلك لطف المكلف فى الدنيا؛ لأنه متى علم أنه سيلحقه ذلك فى الآخرة كان أقرب إلى العدو عن المعصية إلى الطاعة.

٥١٢ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه جسم، فقال: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[1]..

والجواب عن ذلك: أن ظاهره مما لا يقول به مسلم، لأنهم لا يقولون إنه فى الحقيقة بهذه الصفة، ولو كان الأمر كذلك لوجب كونه محدثا، ولوجب أن يكون ضياء النهار أبدا باقيا، لأنه لا يخرج من أن يكون نور السموات والأرض؛ لأن التغيير عليه لا يجوز، ومتى جوزوا ذلك فيه لزمهم أن يكون مرة نورا لهما وأخرى ظلمة، يتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وفى الكلام، ما إن حمل ما قالوه على ظاهره، تناقص؛ لأنه قال: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ وهذا يوجب كون النور غيره بحق الإضافة، والأول يقتضى أنه النور، ويتعالى عن أن يريد ذلك بكلامه.

والمراد بذلك: أنه تعالى نور السموات والأرض بالنور الذى يحدثه تعالى، أو يكون المراد به: أنه الهادى لأهل السموات والأرض، المبين لهم أمر

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

obeikandl.com

دينهم، وهذا كما وصف فى كثير من المواضع الإيمان نورا، والكفر ظلمة. وعلى قريب من ذلك يتأول قوله ﷺ: «إن الله هو الدهر» إن صح عنه. وقوله: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[1] ويأتى بالأزمان، يبين ذلك أنه أراد أنه المصرف للدهر.

٥١٣ - فأما قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾[2] فقد علمنا أن ظاهره لا يتأتى، فإذا ثبت ما ذكرناه علم أن المراد غير ظاهره، وأنه تعالى أراد أنها بما يظهر منها: تنزهه تعالى عما لا يليق به فى ذاته، من إثبات صاحبه وولد وشريك، وما يليق من فعله من المقبحات.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[3] يوجب أن حمل على ظاهره، أنها تصلى كما أنها تسبح، وهذا مما لا [يقول به] أحد، فلا بد من حمل ذلك على دلالتها على الخضوع والانقياد لما يريده، وكذلك القول فى التسبيح.

٥١٤ - وأما قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[4].

فمن قوى ما يدل على بطلان قولهم بتكليف مالا يطاق؛ لأنه تعالى إذا أزال عنهم الضيق وعذرهم بالتأخر عن الجهاد للعذر الحاصل الذى لا يمنع فى الحقيقة من الجهاد، لكنه يشق معه، فكيف يجوز أن يوجب فيمن لم يفعل ما لا يقدر عليه ولا سبيل له إلى ما فعله، العقاب الدائم؟! هذا مما لا يجوز أن يتصوره أحد من العقلاء!

---

(١) سورة النور: الآية ٤٤.

(٢) سورة النور: الآية ٤١.

(٣) سورة النور: الآية ٤١.

(٤) سورة النور: الآية ٦١.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥١٥ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى فيها ما يدل على أنه الخالق لكل شيء والمقدر له، فقال: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**﴾[١].

والجواب عن ذلك قد تقدم فى سورة الأنعام، وبينا أن ذلك لا يدل على خلقه أفعال العباد؛ من جهات، وأن ظاهره فى اللغة يقتضى أنه قد قدر كل شيء، وذلك مما لا نأباه فى أفعال العباد، لأنه تعالى قد قدرها وبينها. ودللنا على أن ظاهر التقدير فى اللغة ليس هو الخلق، ولا يفيد ذلك أن المقدر من الفعل المقدور، وبينا ذلك بقول الشاعر:

وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

فأثبته خالقا ونفى عنه القطع الذى هو الفعل.

وقوله تعالى فى هذه الآية: ﴿**فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**﴾ يدل على أن هذا هو المراد بالخلق، على ما ذكرناه.

وبعد، فإن التقدير إنما يصح فى الأجسام؛ لأنها التى يظهر فيها اختلاف الأشكال، ولذلك كثر ذكر الخلق فى الأديم دون غيره، فإذا صح ذلك وجب حمل الآية على أنه خلق الأجسام وقدرها على ما أراده، ولهذا ذكر هذا عقيب قوله: ﴿**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ فأراد أن يدل على أنه المختص بالأمور التى توجب العبادة، ليبين أنه لا سواه، ولذلك قال بعده: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً**﴾[٢] وإنما يتعلق الأول به متى حمل على ما ذكرناه ولذلك قال:

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣.

obeikandi.com

﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[1] منبها بذلك على أن ما ادعوه إلها لا يصح منه الخلق، وكل ذلك واضح.

٥١٦ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يبقيهم ويريد منهم المعاصى والعدول عن الطاعة، فقال: ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾[2].

والجواب عن ذلك: أن ظاهره يؤذن بأنهم بعد ذلك نسو الذكر، ولا يدل على أنه تعالى متعهم لأجل ذلك، بل الدلالة دلت على أنه يبقيهم لكى يطيعوا!

وبعد، فلو حملناه على ظاهره لم ينفعهم، وذلك أن النسيان عندنا من فعل الله، فلا يمتنع أن يقال إنه أراد أنه أبقاهم البقاء الطويل حتى آل الآمر بهم إلى أن نسوا، وإلى أن زال عنهم التكليف، ولم يتلافوا ما كان منهم، زاجرا بذلك المقدم على هذا عن ترك التوبة، مرغبا له فيها.

٥١٧ - وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[3] يدل على نفى الرؤية؛ لأنه تعالى عظم هذا القول من قائله، ولو كانت الرؤية جائزة، لم يجب ذلك فيه، وقد بينا القول فى نظير ذلك من قبل.

٥١٨ - مسألة: قالوا ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يخلق الأعداء للأنبياء عليهم السلام، ويجعلهم بهذه الصفة، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾[4].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ١٨.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٢١.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٣١.

obeikandi.com

والجواب عن ذلك: أنـه ليس فيه إلا إنه جـعلهم أعداء، فـمن أين أنه خلق فيهم المعاصى؟

وقد يجوز أن يكون العدو عدوا بأمـور من قبله تعالى إذا أعلمه ضرورة مـا يريده النبى، ﷺ، من الشر بالأمـارات التى يظهـرها، جاز أن يقـال أنه جعـله عدوا له فى الحـقيـقة، ومـتى ألزم النبى، عليه السـلام، قتـالهم وأن يعـاديهم فى الدين، جـاز إضافـة ذلك إليه ولو كـان تعـالى جعلهم أعـداء للأنبياء لزال عنهم الذم، ولو جب إذا أمر بدفـعهم عن العداوة أن يكون آمرا بدفعه عن فعلـه، ومتى غلبوا أن يكون تعالى مختصـا بذلك، وهذا كفر من قائله!

٥١٩ - فأمـا قوله تعـالى من بعد: ﴿**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾(١) فى الرسول عليه السلام، وقولهم إن ذلك يدل على أنه الخالق للإيمـان فى قلبه، فبعيد؛ لأن ظاهره إنما يقتضى أنه يثبت، بما ذكره من القـرآن، فؤاده، وليس فيه ذكر الإيمان، بل يواجه أن يحمل على نفسه القرآن، وأنه تعالى إنما لم ينزله رفعه الواحدة كما قاله الكفار، لكى يثـبت فؤاده به، ويحفظه، من حيث كان ﷺ لا يكتب ولا يقرأ، ويبين بذلك وجه المـصلحة فى تفريط إنزاله، فلا يدل إذا على ما قالوه.

٥٢٠ - وأما قوله: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾(٢).

فقد بينا من قبل القول على نظير هذه الآية.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤٤.

obeikandl.com

٥٢١ - وقوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**﴾[١].

وتعلقهم بذلك فى أنه الخالق لأفعال العباد، فقد بينا الكلام فى نظائره على أن هذه الآية أبعد من غيرها، وذلك أنه إنما ذكر هذه القول فى الحال التى خلقها، ولم يثبت فى تلك الأيام للعباد عصوا فيها وأطاعوا.

ويجوز عندنا أن يخلق تعالى [ذلك] فى بعض الأحياء وإن لم تكن مكلفة قادرة، ويحسن ذلك، فتعلقهم بذلك بعيد.

٥٢٢ - فأما قوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ فقد بينا أنه لا يدل على ما نقوله المشبهة.

٥٢٣ - وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾[٢].

يدل على الوعيد: وذلك أنه تعالى بين أن من يفعل ذلك يلقى آثاما، والوعيد إذا تعلق بأفعال مذكورة متقدمة، وجب تعلقه بكل واحد منها، فيجب أن يكون الزنا بانفراده، يتعلق هذا الوعيد به.

ويدل أيضا على الخلود، كما نقوله، لأنه قال: ﴿**وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**﴾[٣] والخلود ينبئ عن الدوام ونفى الانقطاع، ولذلك قال لنبيه ﷺ: ﴿**أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾[٤] ولو كان الوقت المنقطع يوصف بذلك لم يكن فى موته منع للتخليد فيهم!

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٨.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٩.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

obeikandi.com

٥٢٤ - وأما قـوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1] وقولهم إن ذلك يدل على أنه الفاعل لما يصيرون به أئمه ومؤمنين، فقد بينا من قبل أنه لا يدل على ذلك، وأنه لا يمتنع كون الإمام إماما بأمور من قبله لولاها لم يجب الائتمان به، وتقصـينا ذلك، وبينا أن الظاهر إذا زال، فالواجب حـمله على الألطاف وغيرها.

* * *

(١) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥٢٥ - مسألة: قالوا ثم ذكر تعالى فيها ما يدل على أن الأنبياء يجوز أن يضلوا، فقال: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾[١] وقوله تعالى من بعد: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾[٢] يدل على أن ما به صار عالما حكيما، من قبل الله تعالى.

وقوله من بعد: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يدل على أن الفضل الذى له صح كونه رسولا من قبله تعالى.

والجواب عن ذلك: أن ظاهر قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ لا يدل على ما قالوه؛ لأن الضلال قد يكون فى الدين وفى غير الدين، وقد يسمى العقاب ضلالا، على ما بيناه من قبل.

وقد يوصف من ذهب عن طريق الرشد فى باب ما، إنه قد ضل عنه، وعلى هذا قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾[٣] وقال: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾[٤] فلا يمتنع أن يكون مراده بقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾: من الذاهبين عن طريق الدلالة على أنه لم يكن لى إن أضرب ذلك الرجل، وأراد بذلك الذهاب عن الطريق، فإنه يؤدى إلى الهلاك نفسه.

٥٢٦ - وقوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ ظاهره أنه آتاه العلوم التى بها بان من غيره وكذلك نقول.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أنه بإرسال الله صار كذلك، وهذا قولنا فلا تعلق للقوم به.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١.

(٣) سورة الضحى: الآية ٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

obeikandl.com

٥٢٧ - مسألة: قالوا ثم ذكر تعالى ما يدل على أن موسى أراد من السحرة الكفر، فقال لهم: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[١] وقد علم أن وقوع ذلك منهم كفر.

والجواب عن ذلك: أن الإلقاء قد يقع على وجه يحسن عليه، بأن يكون مقصدهم فى ذلك ظهور الفصل بينه وبين المعجز، لينكشف صدقه عما يدعيه، وقد يقبح متى قصدوا به التلبيس وبيان كذبه، فلا يمتنع أن يأمرهم موسى عليه السلام بالإلقاء على الوجه الأول، وبطل ما توهموه، وإن كان يقدح ذلك لو كان الإلقاء على كل وجه يكون كفرا، والحال بخلافة.

وبعد، فإن المعلوم من حال موسى أنه لم يأمر بذلك ولا أراده، لأنه كان يريد من جميعهم البدار إلى تصديقه فى النبوة، وإنما قال ذلك على وجه التقرير؛ ليبين أنكم إن كان لا بد من أن تفعلوا ما عزمتم عليه فافعلوه، ليتبين الفرق بين الدلالة والتمويه، كما يقول الواحد منا للمبطل إذا كلمه وقد أظهر عليه الدلالة تكلم على هذا إن كنت محقا!

٥٢٨ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يخلق فعل العبد ويريده، فقال: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ﴾[٢] فبين أنه قرب فرعون من المسلك فى البحر.

والجواب عن ذلك: أن ظاهره لا يقتضى إلا أنه فعل تعالى الإزلاف، وليس فيه أن ذلك القرب هو قرب من البحر، أو من غيره، فلا ظاهر لهم فى الوجه الذى قالوه.

وقد قال شيخنا أبو على، رحمه الله: يحتمل أن يكون المراد بذلك أنه

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٤٣.

(٢) سورة الشعراء - الآيتان ٦٤، ٦٥.

obeikandl.com

قربـهم من الأجل والهلاك، لأن ورودهم المسلك فى البـحر أوجب هلاكـهم وغرقهم، فهذا فى الحقيقة تقريب من الأجل فعله الله.

قال: ويجوز أن يكون المراد بالإضافـة: أنه تعالى لما جعل ذلك المسلك يبسا وعبر موسى فيه بأصـحابه، وظن فرعون أن يبقى على تلك الحالة، دعاه ذلك إلى القرب والدخول، فمن حـيث فعل ما هو الداعى والسبب فى ذلك جاز أن يقال إنه أزلفهم، وإن كان الفعل لهم.

٥٢٩ - مسألة: قالوا: ثـم ذكر تعالى - بعـده - ما يدل على أنـه الخالق للهدى والإيمـان، فقال: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾[١] وقال: ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾[٢] وذلك يدل على أنه جوز العقـوبة على نفسه مع كونه نبيا، لأن الطمع ظن.

وقوله: ﴿**وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ**﴾[٣] يدل على انه جـوز ذلك على الله تعالى، وهذا كله يدل على أنه يجوز أن يفعل القبيح!

والجواب عن ذلـك: أن قوله: ﴿**يَهْدِينِ**﴾ المراد به الدلالة والتكليف، وذلك من فعله تعالى، وقد سلف القول فيه.

وقوله: ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي**﴾ المراد به: الانقطاع إليه فى طلب المغفرة فأورد الكلام على وجه الحـذر والخوف ليكون إلى الانقطاع أقرب. ولو أورده على غير هذا اللفظ لم يقتض هذا المعنى، وأن كان عـالما بأنه سيغفر له وهذا كاستغفارهم لذنوبهم وتكريرهم التوبة.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٧٨.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٨٢.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٧.

obeikandi.com

٥٣٠ - وقوله من بعد: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾[١] قد بينا أن المراد به ما يكون من قبل الله من العلوم والأدلة والألطاف.

٥٣١ - وقوله تعالى من بعد: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٢] ليس المراد به أن يجعله صالحا فيلحقه بدرجتهم ويدخله الجنات فى أعلى المراتب. وإن حمل على أن المراد به مسألة اللطف والمعونة ليبلغ مرتبة الصالحين جاز أيضا.

٥٣٢ - وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[٣] فهو على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى، لا لأنه جوز أن يخزيه، لأن القول بذلك فى المؤمن ليس بمذهب لأحد! فكيف فى الأنبياء؟

وقد بينا أن الداعى إذا دعا وطلب الشىء لا يدل على أن ذلك الشىء يقع على كل حال، وقد بينا وكشفنا القول فى ذلك.

٥٣٣ - وقوله: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾[٤] يدل على نفى التشبيه، لأنهم وقد حل بهم العقاب بينوا أن الضلال الذى أوردهم ذلك المورد هو تسويتهم المخلوق بالخالق. والقول بالتجسيم والتشبيه يوجب ذلك.

ومتى قال قائل: إن المراد أنهم سووا بينه وبين المخلوق فى أنهم قبلوا من المخلوق وأطاعوه، فأداهم ذلك إلى الضلال، فهذا إن صح فهو غير ممتنع، وهو دال على ما قلناه، لأنهم إذا دعوا ذلك ضلالا، من حيث قبلوا من غير الله ما يختص القديم تعالى بما يوجب القبول منه - وكذلك إذا سوى الواحد منا بينه وبين المخلوق فى ذاته - لزم ذلك.

(١) سورة الشعراء: الآية ٨٣.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٨٣.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٨٧.

(٤) سورة الشعراء - الآيات ٩٦ - ٩٩.

obeikandi.com

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ يبطل قوله المجبرة، لأن على قولهم لم يضلهم إلا القديم، ولولا إضلاله لهم لم يؤثر إضلال المجرمين، بل هو الذى أضل المجرمين حتى أضلوا القوم!

٥٣٤ - مسألة: قالوا ثم ذكر تعالى ما يدل على أن عمل العبد من قبله، وهو الذى يقدر أنه ينزل بالعبد ويخلصه منه، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾(١).

والجواب عن ذلك: أن ظاهره يوجب أنه طلب النجاة من عملهم، ومعلوم خلافه، لأنه مخلص من عملهم، فلا يجوز أن يطلب النجاة.

٥٣٥ - وقوله تعالى من بعد: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾(٢) قد تقدم القول فى أمثاله.

٥٣٦ - وقوله من بعد: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾(٣) لا يدل على أنهم لا يستطيعون الإيمان والطاعة، لأن الأمر الذى نفى استطاعتهم فيه غير مذكور، فالتعلق به لا يصح. على أن فى مقدمة الكلام ما يدل على أن المراد هو ذكر القرآن، كأنه بين تعالى أن المنزل له هو الروح الأمين، دون الشياطين، وأنهم لا يستطيعون ذلك، ولا يليق بهم، وبين أنهم عن السمع لمعزولون، منبها بذلك على أنهم ممنوعون من استماع ذلك، لورود الشهب عليهم، على ما ذكروه فى قوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾(٤).

***

(١) سورة الشعراء: الآية ١٦٩.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٠٠.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ٢١٠ - ٢١١.

(٤) سورة الجن: الآية ٩.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥٣٧ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يريد الكفر والمعاصى ويزينه، فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ**﴾[١].

والجواب عن ذلك: أنه لو كان المراد به ما يقتضيه الظاهر، لوجب أن يكون تعالى مزينا لما وقع من عملهم من الكفر، ولا يجوز ذلك عند أحد؛ لأنه تعالى نهى عنه وزجر عن فعله وقبحه. وكان يجب على هذا أن يكون عملهم حسنا، لأن ما زينه الله لا يكون قبيحا.

فإذن يجب أن يكون المراد به: أنه زين لهم ما كلفهم من الأعمال، ومن حيث كلفهم جاز أن يسميه عملا لهم. وقد ذكرنا ذلك من قبل.

٥٣٨ - وأما بقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾[٢] فإنه يدل على حدثه، لأن القديم لا يصح وصفه بأنه يصدر من لدن الحكيم.

٥٣٩ - وقوله تعالى من بعد: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ**﴾[٣] يدل على حدث النداء، لأن وقته حال المجيء، وذلك لا يصح من حال القديم!

٥٤٠ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على حسن تعذيب من لا يستحقه، فقال: ﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾[٤]، فإن قلتم أنه مستحق لذلك، لزمكم جواز تكليف الطيور، على ما يقوله كثير من أصحاب التناسخ!

---

(١) سورة النمل: الآية ٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٦.

(٣) سورة النمل: الآية ٨.

(٤) سورة النمل الآيتان ٢٠، ٢١.

obeikandl.com

والجواب عن ذلك: أن من شيوخنا من قال إنه كان عاقلا مكلفا فى زمن سليمان، وكان ذلك معجزة له، فصح أن يقول هذا القول.

فأما أبو على، رحمه الله، فإنه كان يقول: إنه بمنزلة المراهق الذى يقارب حال العاقل، فصح منه ذلك على جهة التأديب، كما يصح من أحدنا مثله فى المراهق إذا أرسله وعصى فيما أراد منه. قال: ولا يمتنع مع هذا أن يقول: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1] فيكون حاكيا لذلك من غير معرفة بالله تعالى، كما يحكى مثله المراهق.

٥٤١ - وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾[2] يدل على قولنا فى العدل، من جهات:

منها: أنه أضاف تزيين عملهم إلى الشيطان، ولو لم يكن ذلك فعلهم لم يكن عملا لهم، ولو لم يكن من جهتهم لم يكن لتزيينه تأثير؛ إن الدواعى إنما تصح فيما لا يحصل من الفعل على جهة الوجوب، ألا ترى أن أحدنا لا يجوز أن يزين له الألم الذى يقع عن ضرب غيره فيه! لأن ذلك يقع به على جهة الوجوب.

ومنها: أنه تعالى لو خلق فيهم عملهم لم يصح من الشيطان أن يكون صادا لهم عن السبيل، بل كان تعالى هو الموصوف بذلك، وكان لا يكون بفعله من التأثير ما يكون صدا.

٥٤٢ - وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ يدل على تمكنهم من الاهتداء، وعلى أنه لو وقع لكان من قبلهم، وذلك ظاهر.

---

(١) سورة النمل: الآية ٢٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٢٤.

obeikandl.com

٥٤٣ - وقوله تعالى من بعد: ﴿**قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**﴾(١) يدل على أن القوة قبل الفعل؛ لأنه وصف نفسه بأنه قوى عل ذلك قبل أن يفعله. ومتى قيل أنه أراد أنه قوى على غير ذلك اقتضى الخروج عن الظاهر، وبطلت الفائدة بالكلام.

٥٤٤ - **مسألة**: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يفعل المكر، فقال: ﴿**وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾(٢).

والجواب عن ذلك ونظيره قد تقدم. وإنما أراد أن ينجى صالحا من قومه الذين عزموا على قتله، من حيث لا يشعرون، فوصف ذلك مكرا على جهة التوسع، على ما قدمناه من قبل.

٥٤٥ - وقوله: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ**﴾(٣) قد بينا أن المراد ما يجعل بما صاروا به خلفاء فى الحقيقة، من الأحوال التى يفعلها الله تعالى لهم.

ويجوز أن يراد بذلك اللطف والمعونة.

٥٤٦ - وقوله تعالى: ﴿**أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾(٤) لا يدل على أن الحرام من رزقه تعالى لمن تناوله. وإنما يدل على أنه يرزقنا فقط، ثم يعتبر ذلك من الرزق ومن الرزق رزقا له، لا يدل الظاهر عليه. والمتناول للحرام قد رزقه الله تعالى الحلال. وذلك الحرام فهو رزق لمن ملكه، فهو داخل تحت الظاهر فى الوجه الذى يقتضيه ويدل عليه.

---

(١) سورة النمل: الآية ٣٩.

(٢) سورة النمل: الآية ٥٠.

(٣) سورة النمل: الآية ٦٢.

(٤) سورة النمل: الآية ٦٤.

obeikandl.com

٥٤٧ - وقوله: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ**﴾[١] فقد بينا فى نظائر ذلك أنه على جهة التشبيه بحال الميت الأصم، بحيث أعرضوا عما يلزمهم النظر فيه وتأمل معانيه.

٥٤٨ - وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا**﴾[٢] المراد به أيضا ما ذكرناه، وقد تقدم ذلك مشروحا.

٥٤٩ - وقوله: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٣] يدل على أنه تعالى لم يخلق القبائح: لأنه لو خلقها وصنعها لوجب فيها أن تكون متقنه، ولو جاز ذلك فيها لجاز أن تكون حكمة وصوابا، وذلك محال.

أو أن يقال: إنه خلقها ولم يتقنها، وهذا بخلاف الظاهر، لأنه يقتضى أنه أتقن الجميع على العموم، فلم يبق إلا القول بأنها لم تحت تدخل الظاهر، وأنها ليست من صنعه، وهى من أفعال العباد.

***

(١) سورة النمل: الآية ٨٠.

(٢) سورة النمل: الآية ٨١.

(٣) سورة النمل: الآية ٨٨.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥٥٠ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى فيها ما يدل على أنه يجعله أئمة، ويخلق فيهم الأعمال الصالحة، فقال: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً**﴾(١).

والجواب عن ذلك قد تقدم، لأنه لا يجوز أن يجعلهم فى الحقيقة أئمة، لأنه يجب القبول منهم والاقتداء بهم، من حيث يحملهم الرسالة ويثبتهم بالمعجزة، وقد علم أنهم لا يصيرون كذلك بأفعالهم، فإذن يجب أن يكون المراد بالظاهر ما قلناه. وإذا ملكهم للأمور جاز أن يقول: ﴿**وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾(٢) من حيث ملكوا ذلك، ومن حيث ملكهم ومكنهم من التصرف، ويجوز أن يقول: ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ**﴾(٣) من هذا الوجه، ومن جهة إيجابه على الناس الانقياد لهم والقبول منهم.

٥٥١ - وقوله تعالى: ﴿**لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا**﴾(٤) فقد بينا فى نظائره أنه لا يمكن التعلق بظاهره؛ لأنه يقتضى الربط الذى لا يصح إلا فى الجسمين، فالمراد أنه صبرها وقوى قلبها حتى فعلت بموسى ما فعلته، وكتمت من حالها ما كتمته.

٥٥٢ - وقوله تعالى، من بعد: ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا**﴾(٥)، وقوله: ﴿**قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾(٥) يدل على أن ما فعله لم يكن خلقا لله، و إلا لم يكن لإضافته إلى الشيطان معنى؛ لأن وجود دعائه كعدمه فى هذا

---

(١) سورة القصص: الآية ٥.

(٢) تتمة الآية السابقة، رقم ٥.

(٣) جزء من الآية السادسة.

(٤) جزء من الآية العاشرة.

(٥) سورة القصص جزء من الآية ١٥.

obeikandl.com

الباب. وإنما قال تعالى: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ - وإن كان من عمله - لتقوى بذلك إضافته إليه. وقد يستعمل مثل ذلك كثيرا فى الشاهد إذا كان سبب الفعل وقع من الغير.

٥٥٣ - وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[١] يدل على أن ذلك من فعله، فلذلك كان هو الظالم لنفسه. ولو كان من فعل الله تعالى لكان هو الظالم له، تعالى عن ذلك!

فإن قال: فكيف يجوز أن يظلم نفسه، وتلك المعصية هى صغيرة لا ضرر عليه فيها؟

قيل له: إن أبا على، رحمه الله، قال فى ذلك: إنه لما ألزم فى نفسه التوبة مع كونها شاقة، من حيث أقدم عليها، كان ظالما لنفسه من هذا الوجه!

وقد اعترض شيخنا أبو هاشم، رحمه الله، بأن قال؛ إن ذلك يوجب أن يكون تعالى بأصل التكليف ظالما للعبد، وهذا مما لا يجوز القول به؛ لأن التكليف نفع، من حيث يستحق أنه يصل إلى الثواب، فكيف يكون ظالما؟.

وقال رحمه الله: إنما صار لنفسه بالصغيرة، من حيث نقصت من ثوابه، فصار فوت النفع بمنزلة حصول المضرة.

قيل: وهذا هو الصحيح من الجوابين.

٥٥٤ - وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[٢] يدل على أن القوة على الفعل تحصل قبله؛ لأنها لو كانت تحصل حالا بعد حال لم يكن ذلك ترغيبًا لأبيها فى استئجاره. ووصفها له بأنه

---

(١) سورة القصص: الآية ١٦.

(٢) سورة القصص: الآية ٢٦.

obeikandl.com

قوى، متى لم يرد به ما ذكرته من قبل من الاستئجار لم يكن فيه فائدة ولا له معنى، وكان فيه الزوال عن الظاهر.

٥٥٥ - وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[1] يدل على حدث النداء، من حيث علقه أولا بإتيانه الموضع، وقد علمنا أن الوقت إنما يصح فى المحدث دون القديم. ومن حيث قال: ﴿**مِنَ الشَّجَرَةِ**﴾ وقد علمنا أن لفظة «من» إذا دخلت فى الكلام لمعنى، فإما أن يراد بها التبعيض، وذلك لا يصح فى هذا المكان؛ لأن النداء لا يصح كونه بعضا للشجرة. أو يراد به ابتداء الغاية، وهو الذى يصح فى هذا المكان، كقولهم: هذا كتاب من زيد، فكأنه تعالى بين أن ابتداء النداء كان من الشجرة، وهذا يوجب حدوثه فيه ليصح ذلك.

٥٥٦ - وقوله بعد ذلك: ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ**﴾[2] لا يدل على أن دخولهم البحر من خلق الله؛ لأن الظاهر لا يقتضيه، من حيث سمى ذلك نبذًا وطرحًا. فالمراد أنه أغرقهم عند إيصال المال، فصار حالهم عند ورود الماء عليهم حالَ من يرد على الماء بالطرح والنبذ.

٥٥٧ - وقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾[3] أحد ما يتعلقون به فى أنه يدل على أن ما به صاروا كذلك من خلق الله تعالى، قالوا ولا يمكنه فى هذا الموضع أن يجعلوه على اللطف؛ لأن القوم كانوا يدعون إلى المعاصى!!

---

(١) سورة القصص: الآية ٣٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٤٠.

(٣) سورة القصص: الآية ٤١.

obeikandi.com

والجواب عن ذلك: أن الظاهر يوجب أنه تعالى جعلهم أئمة يدعون إلى النار، كما جعل الأنبياء أئمة يدعون إلى الجنة! وهذا مما لا يقول به أحد، فلا بد عند الجميع له من تأويل!.

والمراد بذلك: أنه أخبر عن حالهم بذلك، وحكم بأنهم كذلك. وقد بينا أن الإضافة على هذا الوجه قد تحصل بالتعارف.

ويجوز أن يراد بذلك: أنه لما شهر حالهم وأظهرها ببعثة الأنبياء حتى عرفوا وعرف مذهبهم، جاز أن يضاف إليه من هذا الوجه.

٥٥٨ - وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾[١] يدل على حدث القول؛ لأن وصل بعضه ببعض لا يصح إلا مع القول بحدثه، لاستحالة ذلك فى القديم والمعدوم.

٥٥٩ - وقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ يدل على أنه لأراد من جميعهم التذكر، كافرهم ومؤمنهم، لأنا قد بينا أن «لعل» من الله تعالى، بمعنى الشك لا تصح، فهو بمعنى «كى» وقد ذكرنا ذلك فى مواضع.

٥٦٠ - وأما قوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾[٢] فغير دال على أن الهدى هو الإيمان الذى لا يصح من الرسول، عليه السلام، على ما يذكرون!، وذلك لأن الهدى قد بينا أنه يحتمل، وأن الأصل فيه هو الفوز والنجاة، والدلالة والبيان، فيجب أن يحمل على أن المراد بذلك أنه لا يثبت من أحب. وأن ذلك لا يصح، ولا يحصل بحسب محبته، وإنما يحصل بفعل الطاعة والإيمان، وأنه تعالى يهدى من يشاء ممن قد آمن واستحق ذلك.

---

(١) سورة القصص: الآية ٥١.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٦.

obeikandl.com

ولا يجوز أن يحمل على معنى الدلالة، لأنه تعـالى وصفه بأنه يهدى وينذر، بقـوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(١) وبقـوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) فيجب أن يكون المنفى غير المثبت، و إلا تناقض الكلام، وكلامه يتعالى عن ذلك.

٥٦١ - وأما قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾(٣) فالكلام عليـه كالكلام على قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٤)، وقد بينا ذلك من قبل.

* * *

(١) سورة الرعد: الآية ٧.
(٢) سورة الشورى: الآية ٥٢.
(٣) سورة القصص: الآية ٦٨.
(٤) سورة الحج: الآية ١٤.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥٦٢ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى فيها ما يدل على أنه يفتن فى الدنيا فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(١).

والجواب عن ذلك: أن المراد بالفتنة ليس هو الكفر والمعصية، وقد بينا ذلك فى مواضع.

وما ذكره فى هذا الموضع من أقوى ما يدل على أن المراد بها تشديد المحنة؛ لأنه بين تخطئة القول بأنه خلق الخلق لا لتكليفهم، فقال: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾(٢) وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ المراد به: أنا امتحناهم بالضراء والمصائب والمحن فصبروا فى المستقبل يدل على الصبر على ما يلحق المكلف من المحن، وهو الذى أراد به بقوله: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾(٣).

٥٦٣ - وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾(٤) فقد بينا أنه لا يدل على قول المجسمة، فى مواضع، وأن المراد بذلك لقاء ثوابه وعقابه.

٥٦٤ - وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾(٥) فقد بينا الكلام عليه فى قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٦).

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٣.
(٢) سورة العنكبوت - الآيتان ١، ٢.
(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٦.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٥.
(٥) سورة العنكبوت: الآية ١٣.
(٦) سورة النحل: الآية ٢٥.

obeikandl.com

٥٦٥ - وقوله: ﴿**فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ**﴾[١] يدل على قولنا فى العدل؛ لأنه لو كان اضطرهم إليه لم يكن أخذا لهم بذنوبهم.

٥٦٦ - وقوله تعالى: ﴿**وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ بعد قوله: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ**﴾[٢] يدل على أنه تعالى لا يخلق فيهم الكفر والمعاصى، ولا يكلفهم مالا يطيقون ثم يعاقبهم.

٥٦٧ - وقوله تعالى: ﴿**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾[٣] قد بينا من قبل نظائره أنه يدل على تنزيهه عن القبائح، وأنه لا يفعل إلا على الوجه الذى يحسن.

٥٦٨ - وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[٤] يدل على قولنا فى العدل؛ من جهات.

منها: أنه تعالى إذا من أنه جنبه الكتابة والقراءة لئلا يرتاب به، فكيف يظن مع ذلك أنه يخلق فى القوم الريبة، والشك، والجهل، والكفر؟

ومنها: أنه تعالى لو فعل ذلك فيهم لكان جعله، ﷺ، بهذه الصفة عبثا لا فائدة فيها، وذلك أنه قد خلق ذلك فيهم وجب كونهم كذلك على كل حال، وإن لم يخلقه فكمثل، سواء كان، ﷺ، على هذه الصفة أو لم يكن.

ومنها: أنه لا يجوز أن يجنب نبيه هذه الأمور لئلا يرتابوا به إلا ويفعل كل ما كان أدعى إلى الطاعة وأبعد عن المعصية، وذلك يحيل القول بأنه الفاعل لنفس المعصية.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٠.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٠.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٤٤.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

obeikandl.com

٥٦٩ - وقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[١] يدل على أن الكفار كانوا يقدرون على الإيمان، وعللهم فيما كلفوا مزاحة؛ لأنهم لو لم يكونوا كذلك لم تقع لهم الكفاية بالقرآن. ولوجب لو أنزل الله من الكتب مالا يحصى أن يكون وجوده كعدمه فى أنه لا يمكنهم الفعل مع عدم القدرة.

٥٧٠ - وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٢] لا يدل على قوله المرجئة إنها لا تحيط إلا بهم، [ولا] على قول الخوارج إن كل من فيها يجب كونه كافرا؛ لأن الكلام إنما يدل على أنها تحيط بهم، ولا يمنع من كونها محيطة بسواهم.

٥٧١ - وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[٣] يدل على أنه تعالى ألزم العبد أن يقوم بما كلف على كل حال، وإن احتاج إلى الانتقال من مكان إلى مكان. ولو كان الكافر والعاصى لا يقدران على ذلك، لكان سعة الأرض كضيقها، فى أنه لا يؤثر فى حالها، و لكان الخوف فى مكان الأمن؛ فى أنه لا يؤثر فى ذلك.

ويجب على قولهم أنه لا يكون للإكراه على الكفر معنى، وذلك أن المكره غيره على كلمة الكفر إذا أكرهه ثم وجد ذلك من المكره فإنما وجد على الحد الذى يوجد لولا الإكراه؛ لأن فى الحالين - جميعا - لا بد من وجود القدرة الموجبة فيه، ولا بد من خلقه تعالى ذلك، فما الفائدة إذا فى الإكراه، حتى يختلف حكمه وحكم الاختيار فى العقل والشرع؟ وكيف يعذب المكره

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٥١.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٥٤.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٥٦.

obeikandl.com

من حيث هدده غيره على ما وجد فيه، ولا يعذب إذا كان الله تعالى خالقا لذلك فيه؟ وقد علمنا أن مع ذلك تهديد الغير قد يصح خلافه، ومع خلق الله تعالى فيه يستحيل وقوع خلافه. وهذا بين.

٥٧٢ - وقوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا**﴾[١] يمكن أن يحمل على ما يقتضيه ظاهره، من أنه ألقى فى قلوب من يخيف ذلك المكان ماله ولأجله انصرفوا عنه، فحصل آمنا، ويعتد فيه بما يقتضى زوال الخوف فحصل ذلك.

٥٧٣ - وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[٢] لا يدل على أنه يخصهم بالدلالة والبيان، لأنا قد بينا أن ذلك واجب عمومه فى جميع المكلفين، ومتى خص بعضهم بالهداية فالمراد به غير ذلك المراد به أنه لما اختص بأن اهتدى بذلك خص بالذكر، وإنما أراد تعالى بذلك سبيل النجاة، والفوز، والثواب، لأنه تعالى يخص بذلك من جاهد وأدى ما كلف.

***

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥٧٤ - دلالة: قول تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[1] يدل على أنه تعالى لم يفعل ولا يفعل القبائح، وذلك أنه لو كان فاعلا لم يصح أن يقول: ما خلقهما وما بينهما إلا بالحق؛ لأن الباطل لا يجوز أن يكون مفعولا بالحق؛ ألا ترى أن الرجل إذا قال لغريمه: لا آخذ منك هذا المال إلا بالحق، أن ذلك يدل أنه يأخذه على وجه يحسن، ولو كان تعالى يفعل القبيح لم يوثق فى شىء مما فعله أنه خلقه بالحق، بل كان يجوز أن يكون فاعلا له على وجه العبث والظلم؛ لأنه مالك، ولأنه يفعل فى ملكه ما يريد.

وقول من يقول: إن المراد بقوله: ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾: قال كن فكان جهلٌ؛ لأن ذلك لا يعرف فى اللغة، فيمنع أنهم يعرفون الحق والباطل، وما يقتدى به، فكيف يجوز أن يجعل عليه؟ وكأنه تعالى أراد أن يبين أنه خلق جميع ذلك على وجه الحكمة، لكى يعتبر المكلف، ويستدل، فيصل إلى المطلوب، ويؤديه ذلك إلى الفوز والنجاة، وذلك لا يتم إلا على قولنا فى العدل.

ومن وجه آخر، وذلك أن الآية تدل على أنه تعالى بعث بهذا القول على التفكر فى خلقها وما بينهما، والاستدلال بذلك، وهذا لا يتم متى قيل: إن المعروف ضرورة؛ لأنه تعالى إذا خلقها فيه استغنى عن التفكر، وإن لم يخقلها، وخلق الجهل بدلا منها، فلا وجه للتفكر، وبمثل ذلك أبطلنا قول أصحاب المعارف، وبينا أن مع الاضطرار لا يصح البعث على التفكر والاستدلال بهذه الأمور!

---

(١) سورة الروم: الآية ٨.

obeikandi.com

٥٧٥ - وقوله تعالى من بعد: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[١] يدل على أن المراد بالـلقـاء ليس هو الرؤية والقـرب منـه، وإنما هو الوصـول إلى الثواب والمنازل الرفيعة.

٥٧٦ - **مسألة**: قالوا: ثم ذكر تعالى بعـده ما يدل على أنه الخالق لما يجرى بين الزوجين من المودة والعشرة، فقالوا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٢].

والجواب عن ذلك: أن ظاهره يقـتضى ما نقـوله؛ لأنه تعالى هو الذى خلق الأزواج، وهو الذى يجعل بين الزوجـين المودة والرحمة؛ لأن ذلك إنما هو الشهوة ورقة القلب؛ لأنهما يبعثان على الألفة، والإكثار من الفعل.

٥٧٧ - **مسألة**: قالوا ثم ذكـر تعالى ما يدل على أنه الخالق لكلام الـعبد، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[٣].

والجـواب عن ذلك: أن ظاهرة يقتـضى أنه خلق نفس الألسنة، ومـتى أريد بذلك الكلام المفعول فيها، فهو توسع، وذلك مما لا ينكر.

فإن قالوا: هذا وإن كان كذلك، فمتى حمل الكلام عليه لم يُفد.

قـيل له: هذا لو صـح لم يمنع مما قلناه؛ لأن الكـلام إنما لم يصـر له ظاهر من حيث لو يحمل على وجه مـخصوص لم يفد، وإنما يقال ذلك عند التنازع فى المراد به، مع الاتفاق أن الكلام ليس على ظاهره، وذلك أن اللسان آلة فى الكلام، وبحسـبه يختلف الكلام، فأراد تعالى أن يبـين أنه خالف بين

---

(١) سورة الروم: الآية ٨.

(٢) سورة الروم: الآية ٢١.

(٣) سورة الروم: الآية ٢٢.

obeikandl.com

الألسنة، لكى تختلف الأصوات والنظم فى الكلام، فيفصل بين متكلم من متكلم، كما خالف بين الألوان، ليقع للمشاهد التمييز.

هذا لو ثبت أن ظاهره يقتضى أنه خلق اختلاف الألسنة، فيكيف والظاهر لا يقتضيه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ ورجع إلى الآيات، فكأنه قال: ومن آياته اختلاف ألسنتكم، وهذا إنما يوجب أنه دلالة على الله تعالى، ولا يمتنع عندنا فى أفعال العباد أن تساوى أفعاله تعالى فى كونها دلالة، فلا ظاهر للقوم يتعلقون به.

والأولى ألا يكون المراد بقوله: ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ ظاهر الألوان؛ لأنه لا يحصل فيه من الاعتبار ما تقتضيه الآية، والمراد التى يعظم اختلافها، حتى لا يقع فيها تشابه. ولو كان المراد به اللون، وأجناسه محصورة، لوجبَ أن يكون الاختلاف إنما يقع بين الأسود والأبيض، ولا يقع بين الأشخاص البيض، وهذا بعيد. فالمراد به إذن ما قلناه، من أنه خالف بين الصور لكى يقع التمييز، فيفصل العبد إلى منافع دينه ودنياه، وخالف بين أنواع الألسنة، فاختلف لذلك الأصوات والنغم فوقع التمييز، لكى يصل أحدنا إلى ما يحتاج إليه فى دينه ودنياه.

وقد تأول بعض شيوخنا - رحمهم الله - ذلك على أنه تعالى هو خلق اللغات اولاً وعلّمها، وهو الذى أراده بالكلام. وما قدمناه أولى بالآية؛ من حيث لا يخفى الحال فيها على كل مستدل، وليس كذلك هذا القول.

٥٧٨ - وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾[1] ليس فى ظاهره أكثر من أنهما دلالة، ولا يجب لذلك أن يكونا خلقًا من

(١) سورة الروم: الآية ٢٣.

خلقه تعالى، ويجب أن يرجع فى الفرق بين ما هو من خلقه، ومن فعل العبد، إلى أمر سواء.

وأراد - تعالى - أن يبين أن من آياته ونعمه فصل بين الليل والنهار، وجعل الليل سكنًا، والنهارَ معدًّا للتصرف وابتغاءِ الفضل، ونبه بذلك على حالهما وموقع النعمة بهما.

٥٧٩ - وقوله تعالى من بعد: ﴿**وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**﴾(١) فقد بينا أن هذه الإضافة لا توجب بظاهرها أمرًا مخصوصًا وأنه يحتاج فيها إلى دلالة، وإن كنا لا ننكر أنه المالك لمن فى السموات والأرض، وأنه الخالق لهم؛ لأن المراد بذلك العقلاء.

وقوله تعالى: ﴿**كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ**﴾ المراد بذلك: ثابتون على الانقياد والاستسلام؛ لأن هذا هو الذى يشترك الكل فيه، دون العبادة والقيام بها، لأنهم فى ذلك يختلفون.

٥٨٠ - وقوله تعالى ﴿**فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ**﴾(٢) قد بينا القول فى نظائره، وأنه لا يدل على أنه يقال: يُضِل بخلق الكفر وبخلق سببه. فالمراد بذلك: أن أحدًا لا ينجى من أهلكه الله، ولا يثبت من حكم الله بعقابه، ولذلك قال بعده: ﴿**وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ منبهًا بذلك على ما ذكرناه.

٥٨١ - **دلالة**: وقوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾(٣) يدل على أنه خلق جميع العباد للطاعة والقيام بالدين، على خلاف

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٦.

(٢) سورة الروم: الآية ٢٩.

(٣) سورة الروم: الآية ٣٠.

obeikandi.com

مـا تقوله المجـبرة، وذلك أن فطرة الله هى ديـنه؛ لأنه الذى خلقهم لأجلهـا وفطرهم لهـا، فلما فطر الخلق لذلك، وصـف نفس الدين بأنه فطره. وعلى هذا الوجـــه يصح مـا روى عنه، ﷺ، من قـــوله: «كل مـولد يـولد على الفطرة»(١). وقوله: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ يبين ذلك، لأنه أراد أن الوجه الذى له خلق الخلق لا يتبدل؛ لأنه لا يخلق مرة للعبـادة وأخرى بخلافها، ولذلك قال من بـعد: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، ولو يُرد بما تقـدم ما قلناه لم يكن لـهذه الإشارة معنى!

٥٨٢ - مسألة: قالوا: ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه الخـالق لأفعال العباد والقادر عليـها، فـقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢) فعم الجميع بأنه قادر عليه، وأفعالُ العباد داخلة فيه.

والجواب عـن ذلك: أن ظاهره لا يقتـضى إلا أنه تعالى قـادر على كل شىء فمن أين أن العـبد إذا فـعل تصرفه أن ذلك من خلقـه؟ ولا يجب عند كثـير من العلماء أن يكون المقـدور إذا صح كونه مقـدوراً لله، أن يكون عند الوجود مفـعولا لله تعالى، ويقولـون: يصح من الله فعله لو أراده، لكنه إذا قدر العبـد عليه لم يجز أن يريد فـعله، وإنما يفعله العبد، وفى ذلـك سقوط تعلقهم بالظاهر.

فأما على قولنا فى أن مالا يكون فعلا لله لا يجوز يكون أن مقدوراً له، فالجواب أيضًـا ظاهر؛ لأن وصفه جل وعز بأنه قادر عـلى الشىء لا يتضمن صحة كون ذلك الشىء مـقدوراً له أولا! لأن إثبات الصفة يتضمن صـحتها، فـما لا يصح لا يجـوز دخوله تحت الظاهـر، كمـا أنا إذا وصفناه بأنه عـالم

---

(١) رواه البخارى فى باب قوله: (لا تبديل لخلق الله).

(٢) سورة النمل: الآية ٢٣.

obeikandl.com

بالأشياء لم يدخل فى ذلك مالا يكون معلومًا، وقد ثبت أن فعل العبد لا يصح كونه مقدورًا، فالظاهر لا يتناه له.

وبعد، فإن لفظة الشىء تنطلق على الموجود، والباقى والمعدوم، وقد تكلمنا أنه لا يكون مقدورًا إلا إذا كان على بعض هذه الصفات، فالوجوه التى يحتمل عليها تتنافى، ويستحيل مع بعضها أن يكون معدومًا، ويصح على البعض، فما هذا حاله لا يجوز دخوله تحت الظاهر؛ لأن إرادته كالمتنافى.

وبعد، فإن هذه اللفظة فى الإثبات لا تفيد فى اللغة العموم؛ لأنها بالتعارف تطلق فى المبالغة والتكثير، كقوله تعالى: ﴿**وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾(١) و﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾(٢) و﴿**يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾(٣) فإذا كان التعارف خصصها لم يمكن حملها على العموم، ويجب أن تكون محمولة على ما تقدم فى الكلام من إحياء الموتى وغيره، مما بين أنه تعالى يختص بالقدرة عليه، وأنه أولى أن يعبد من الأصنام والأوثان.

٥٨٣ - فأما قوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾(٤) فقد تقدم القول فى الطبع، فى غير موضع.

***

(١) سورة النمل: الآية ٢٣.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٨.
(٣) سورة القصص: الآية ٥٧.
(٤) سورة الروم: الآية ٥٩.

obeikandl.com